موجز في تفسير
سورة الطلاق

سليمان بيضون

* السّورة الخامسة والسّتّون في ترتيب سوَر المُصحف الشّريف، نزلت بعد سورة «الإنسان».
* سُمّيت بـ «الطلاق» لتعرّضها بشكلٍ أساس لموضوع الطلاق وأحكامه، وهي تُفتتَح بقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ..﴾.
* آياتها اثنتا عشرة، وهي مدَنيّة؛ مَنْ قرأها مات على سُنّة رسول الله، صلّى الله عليه وآله، كما في الحديث النبويّ الشريف.

في ما يلي موجز في تفسير السّورة المباركة اخترناه من تفاسير: (الميزان) للعلّامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، و(الأمثل) للمرجع الدّينيّ الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، و(نور الثّقلين) للشّيخ عبد علي الحويزي.

* «لم يُوصِ القرآن الكريم ولا أكّد في التوصية في شيءٍ من الأحكام المشرّعة كما وصّى وأكّد في أحكام النساء...».

* «.. وأمّا [تشريع] الطلاق فهو من مفاخر هذه الشريعة الإسلاميّة، وقد وُضع جوازه على الفطرة، إذ لا دليل من الفطرة يدلّ على المنع عنه... وقد اضطرّت الملل المُعظّمة اليوم إلى إدخاله في قوانينهم المدنيّة بعدما لم يكن».

(من تفسير الميزان)

محتوى السورة

أهمّ مسألةٍ طُرحت في هذه السورة -كما هو واضحٌ من اسمها- هي مسألة «الطلاق» وأحكامه وخصوصيّاته، والأمور التي تلي ذلك. ثمّ تأتي بعدها أبحاثٌ في «المبدأ والمعاد»، و«نبوّة الرّسول، صلّى الله عليه وآله»، و«البشارة والإنذار». ومن هنا نستطيع أن نقسّم محتوى هذه السورة إلى قسمين:

الأوّل: يشمل الآيات السبع الأُوَل، وهي تتحدّث عن الطلاق وما يرتبط به من أمور، وتتعرّض إلى جُزئيّات ذلك بعبارات وجيزة بليغة، وبشكلٍ دقيق وطريف إلى حدّ الإشباع.

الثاني: يدور الحديث فيه عن عظمَة الله، تعالى، ومقام رسوله، صلّى الله عليه وآله، وثواب الصالحين وجزاء العاصين، على شكل مجموعة مُنسجمة لضمان إجراء هذه المسألة الاجتماعيّة المهمّة.

بعضُ ثواب تلاوة سورة الطلاق

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ قَرَأَ هَذِهِ السّوْرَةَ أَعْطَاهُ اللهُ تَوْبَةً نَصُوحَاً».

* وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ قَرَأَ سورَةَ الطَّلاقِ وَالتَّحْريمِ في فَريضَةٍ، أَعاذَهُ اللهُ مِنْ أَنْ يَكونَ يَوْمَ القِيامَةِ مِمَّنْ يَخافُ أَوْ يَحْزَنُ، وَعُوفِيَ مِنَ النّارِ، وَأَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ بِتِلاوَتِهِ إِيّاهُما وَمُحافَظَتِهِ عَلَيْهِما، لِأَنَّهُما للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿..فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ..﴾ الآية:١.

* الإمام الباقر عليه السلام: «كُلُّ طَلاقٍ لا يَكونُ عَلَى السُّنَّةِ أَوْ طَلاقٍ عَلَى العِدَّةِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ».

* وعنه عليه السلام: «وَاللهِ لَوْ مَلَكْتُ مِنْ أَمْرِ النّاسِ شَيْئاً لَأَقَمْتُهُمْ بِالسَّيْفِ وَالسَّوْطِ حَتَّى يُطَلِّقوا للعِدَّةِ كَما أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

قوله تعالى: ﴿..لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ ..﴾ الآية:١.

❊ الإمام الرضا عليه السلام: «يَعْني بِالفاحِشَةِ المُبَيِّنَةِ أَنْ تُؤْذِيَ أَهْلَ زَوْجِها، فَإذا فَعَلَتْ، فَإِنْ شاءَ أَنْ يُخْرِجَها مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُها، فَعَلَ».

قوله تعالى: ﴿..لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ الآية:١.

❊ الإمام الباقر عليه السلام: «المُطَلَّقَةُ تَكْتَحِلُ وَتَخْتَضِبُ وَتَطَيَّبُ وَتَلْبَسُ ما شاءَتْ مِنَ الثِّيابِ، لِأَنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، يَقولُ: ﴿..لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، لَعَلَّها أَنْ تَقَعَ في نَفْسِهِ فَيُراجِعَها».

قوله تعالى: ﴿..وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ..﴾ الآية:٢.

❊ الإمام الباقر عليه السلام: «قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: مَنْ كَتَمَ شَهادَةً أَوْ شَهِدَ بِها لِيُهْدِرَ دَمَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، أَوْ لِيَزْوِيَ مالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، أَتى يَوْمَ القِيامَةِ وَلِوَجْهِهِ ظُلْمَةٌ مَدَّ البَصَرِ وَفي وَجْهِهِ كُدُوحٌ؛ تَعْرِفُهُ الخَلائِقُ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ. وَمَنْ شَهِدَ شَهادَةَ حَقٍّ لِيُحِقَّ بِها حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، أَتى يَوْمَ القِيامَةِ وَلِوَجْهِهِ نورٌ مَدَّ البَصَرِ تَعْرِفُهُ الخَلائِقُ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ». ثمّ قال عليه السلام: «أَلا تَرى أَنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى يَقولُ: ﴿..وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ..﴾».

❊ قوله تعالى: ﴿..وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ..﴾ الآيتان:٢-٣.

الإمام الصادق عليه السلام: «أَيْ يُبارِكُ لَهُ فيما أَتاهُ».

❊ وعنه عليه السلام: «إِنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، جَعَلَ أَرْزاقَ المُؤْمِنينَ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبونَ، وَذَلِكَ أَنَّ العَبْدَ إِذا لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ رِزْقِهِ كَثُرَ دُعاؤُهُ».

قوله تعالى: ﴿..وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ..﴾ الآية:٣.

❊ الإمام الصادق عليه السلام: «جاءَ جَبْرَئيلُ إِلى النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ: يا جَبْرَئيلُ، ما التَّوَكُّلُ؟ فَقالَ: العِلْمُ بِأَنَّ المَخْلوقَ لا يَضُرُّ وَلا يَنْفَعُ، وَلا يُعْطي وَلا يَمْنَعُ، وَاسْتِعْمالُ اليَأْسِ مِنَ الخَلْقِ؛ فَإِذا كانَ العَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِأَحَدٍ سِوى اللهِ، وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوى اللهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ في أَحَدٍ سِوى اللهِ، فَهَذا التَّوَكُّلُ..».

قوله تعالى: ﴿.. وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ..﴾ الآية:٦.

❊ الإمام الصادق عليه السلام: «لا يُضارَّ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِذا طَلَّقَها، فَيُضَيِّقَ عَلَيْها، حَتَّى تَنْتَقِلَ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُها، فَإِنَّ اللهَ قَدْ نَهى عَنْ ذَلِكَ..».

قوله تعالى: ﴿..وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ..﴾ الآية:٧.

❊ الإمام الصادق عليه السلام: «إِنْ أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلى امْرَأَتِهِ ما يُقيمُ ظَهْرَها مَعَ الكُسْوَةِ، وَإِلَّا فَرَّقَ بَيْنَهُما».

عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يُضارَّ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِذا طَلَّقَها، فَيُضَيِّقَ عَلَيْها، حَتَّى تَنْتَقِلَ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُها، فَإِنَّ اللهَ قَدْ نَهى عَنْ ذَلِكَ..».

﴿..إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ..﴾

إبليس.. وعملُه

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ

تحدّث القرآن الكريم، في مجالٍ واسعٍ من آياته، عن مخلوقٍ سمّاه «إبليس»، ونسب إليه سعيَه لإغواء الإنسان وصدّه عن سبيل الله تعالى بالوسائل الخفيّة، مُحذّراً منه أشدّ التحذير، مُنبّهاً إلى وجود أعوانٍ له من الجنّ والإنس، مقرّراً أنّ سلطانه لا يصلُ إلى ساحة أولياء الله المقرّبين.

ما يلي مختصر بحث للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ رحمه الله ، عن خصائص إبليس ووسائله المُضلّة، أورده في الجزء الثامن من موسوعته القيّمة (الميزان في تفسير القرآن).

عاد موضوع إبليس موضوعاً مُبتذَلاً عندنا لا يُعبأ به، إلّا أن نذكره أحياناً، ونلعنه أو نتعوّذ بالله منه، أو نقبّح بعض أفكارنا بأنّها من الأفكار الشيطانية ووساوسه ونزغاته، من دون أن نتدبّر فنحصّل ما يعطيه القرآن الكريم في حقيقة هذا الموجود العجيب الغائب عن حواسّنا، وما له من عجيب التصرّف والولاية في العالم الإنساني.

وكيف لا، وهو يصاحب العالَم الإنسانيّ على سعة نطاقه العجيبة منذ ظهَر في الوجود حتّى ينقضي أجله، وينقرض بانطواء بساط الدنيا، ثمّ يلازمه بعد الممات، ثمّ يكون قرينَه حتّى يورده النار الخالدة.

هو مع الواحد منّا، كما هو مع غيره، هو معه في علانيته وسرّه، يُجاريه كلّما جرى، حتّى في أخفى خيال يتخيّلُه في زاوية من زوايا ذهنه، أو فكرة يواريها في مطاوي سريرته، لا يحجبه عنه حاجب، ولا يغفل عنه بشغلٍ شاغل.

وأمّا الباحثون منّا، فقد أهملوا البحث عن ذلك، وبنوا على ما بنى عليه باحثو الصدر الأوّل، سالكين ما خطوا لهم من طريق البحث.

وصفُ إبليس في القرآن

لم يصِف الله، سبحانه، من [طبيعة] هذا المخلوق الشرّير الذي سمّاه إبليس إلّا يسيراً، وهو قوله تعالى: ﴿..كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ..﴾ الكهف:٥٠، وما حكاه عنه في كلامه: ﴿..خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ..﴾ الأعراف:١٢، فبيّن أنّ بدء خِلقته كان من نارٍ من سِنخ الجنّ، وأمّا ما الذي آلَ إليه أمرُه فلم يذكره صريحاً، كما أنّه لم يذكر تفصيل خِلقته كما فصّل القول في خِلقة الإنسان.

نعم، هناك آيات واصفة لصنعه وعمله، يمكن أن يُستفادَ منها ما ينفع في هذا الباب؛ قال تعالى حكايةً عنه: ﴿..لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ الأعراف:١٦-١٧.

فأخبر أنّه يتصرّف فيهم من جهة العواطف النفسانية، من خوف، ورجاء، وأُمنية، وأمل، وشهوة، وغضب، ثمّ في أفكارهم وإرادتهم المنبعثة منها.

كما يقارنه في المعنى قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ الحجر:٣٩، أي لأزيّننّ لهم الأمورَ الباطلة الرديئة الشوهاء بزخارف وزينات مُهيّأة، من تعلّق العواطف الداعية نحو اتّباعها، ولأُغوينّهم بذلك، كالزّنا مثلاً يتصوّره الإنسان، وتُزَيِّنُهُ في نظره الشّهوةُ، ويضعُف بقوّتها ما يخطر بباله من المحذور في اقترافه فيصدّق به فيقترفه، ونظير ذلك قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ النساء:١٢٠، وقوله: ﴿..فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ..﴾ النحل:٦٣.

ميدان عمل إبليس

كلّ ذلك - كما ترى - يدلّ على أنّ ميدان عمله هو الإدراك الإنساني، ووسيلة عمله العواطفُ والإحساساتُ الداخلة؛ فهو الذي يُلقي هذه الأوهام الكاذبة والأفكار الباطلة

ميدانُ عمل إبليس هو الإدراك الإنسانيّ، ووسيلةُ عمله العواطفُ والإحساساتُ الداخلة

في النفس الإنسانية كما يدلّ عليه قوله: ﴿..ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ الناس:٤-٥.

لكنّ الإنسان مع ذلك لا يشكّ في أنّ هذه الأفكار والأوهام المُسمّاة «وساوس شيطانية» أفكارٌ يُوجدها هو في نفسه من غير أن يشعر بأحدٍ سواه، يُلقيها إليه أو يتسبّب إلى ذلك بشيء، كما في سائر أفكاره وآرائه التي لا تتعلّق بعملٍ وغيره، كقولنا: الواحد نصف الاثنين، والأربعة زوجان، وأمثال ذلك.

فالإنسان هو الذي يوجِد هذه الأفكار والأوهام في نفسه، كما أنّ الشيطان هو الذي يُلقيها إليه ويُخطرها بباله من غير تزاحم، ولو كان تسبّبه فيها نظير التسبّبات الدائرة فيما بيننا - كمن ألقى إلينا خبراً أو حكماً أو ما يشبه ذلك - لكان إلقاؤه إلينا لا يجامع استقلالنا في التفكير، ولانتفَتْ نسبةُ الفعل الاختياري إلينا، لكون العلم والترجيح والإرادة له، لا لنا، ولم يترتّبْ على الفعل لومٌ ولا ذمٌّ ولا غيره. وقد نسبه الشيطانُ نفسُه إلى الإنسان فيما حكاه الله تعالى من قوله يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إبراهيم:٢٢، فنسَب الفعلَ والظلم واللوم إليهم وسلبها عن نفسه، ونفى عن نفسه كلّ سلطان، إلّا السلطان على الدعوة والوعد الكاذب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الحجر:٤٢، فنفى سبحانه سلطانه إلّا في ظرف الاتّباع، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ ق:٢٧.

وبالجملة، فإنّ تصرّفه في إدراك الإنسان تصرّف طولي لا ينافي قيامه بالإنسان، وانتسابه إليه انتساب الفعل إلى فاعله، لا عرْضي ينافي ذلك.

فله أن يتصرّف في الإدراك الإنساني بما يتعلّق بالحياة الدنيا في جميع جهاتها بالغرور والتزيين، فيضع الباطلَ مكان الحقّ ويُظهره في صورته، فلا يرتبط الإنسان بشيء إلّا من وجهه الباطل الذي يغرّه ويصرفه عن الحقّ، وهذا هو الاستقلال الذي يراه الإنسان لنفسه أوّلاً، ثمّ لسائر الأسباب التي يرتبط بها في حياته، فيحجبه ذلك عن الحقّ ويُلهيه عن الحياة الحقيقية كما تقدّم استفادةُ ذلك من قوله المحكيّ: ﴿..فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ..﴾ الأعراف:١٦، وقوله: ﴿..رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ الحجر:٣٩، ويؤدّي ذلك إلى الغفلة عن مقام الحقّ، وهو الأصل الذي ينتهي ويحلّ إليه كلّ ذنب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الأعراف:١٧٩.

فاستقلال الإنسان بنفسه، وغفلته عن ربّه وجميع ما يتفرّع عنه من سيّء الاعتقاد، ورديء الأوهام، والأفكار التي يتولّد منها كلّ شرك وظلم إنّما هي من تصرّف الشيطان، في حين أنّ الإنسان يُخيّل إليه أنّه هو الموجِدُ لها، القائم بها، لما يراه من استقلال نفسه، فقد صبغ نفسه صبغةً لا يأتيه اعتقادٌ ولا عملٌ إلّا صبغه بها.

ولاية الشيطان

وهذا هو دخوله تحت ولاية الشيطان وتدبيره وتصرّفه من غير أن يتنبّه لشيء أو يشعر بشيء وراء نفسه، قال تعالى: ﴿..إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف:٢٧.

وولاية الشيطان على الإنسان في المعاصي والمظالم على هذا النمط، نظير ولاية الملائكة عليه في الطاعات والقربات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..﴾ فصلت:٣٠-٣١، والله من ورائهم محيط وهو الوليّ لا وليّ سواه، قال تعالى: ﴿..مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ..﴾ السجدة:٤.

وهذا هو «الاحتناك» أي الإلجام الذي ذكره فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الأسراء:٦٢-٦٤، أي لألجمنهم فأتسلّط عليهم تسلّطَ راكب الدابّة الملجِم لها عليها، يُطيعونني فيما آمرُهم، ويتوجهون إلى حيث أشيرُ، من غير أيّ عصيان وجِماح.

ويظهر من الآيات أنّ له جُنداً يُعينونه فيما يأمر به، ويساعدونه على ما يريد، وهو «القَبيل» الذي ذكر في الآية السابقة: ﴿..إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ..﴾ الأعراف:٢٧، وهؤلاء وإنْ بلغوا، من كثرةِ العدد وتفنُّنِ العمل، ما بلغوا، فإنّما صُنعهم صُنع إبليس نفسه، ووسوستُهم وسوسته نفسها، كما يدلّ عليه قوله: ﴿..وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحجر:٣٩، وغيره ممّا حكته الآيات، وهو نظير ما يأتي به أعوان الملائكة العِظام من الأعمال فتُنسب إلى رئيسهم المستعمِل لهم في ما يريده. قال تعالى في ملك الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ..﴾ السجدة:١١، ثمّ قال: ﴿..حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الأنعام:٦١، إلى غير ذلك.

وتدلّ الآية: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ الناس:٥-٦، على أنّ في جنده اختلافاً من حيث كون بعضهم من الجنّة وبعضهم من الإنس، ويدلّ قوله: ﴿..أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ..﴾ الكهف:٥٠، أنّ له ذرّيةً هم من أعوانه وجنوده، لكن لم يفصّل كيفية نشوء ذرّيته منه.

كما أنّ هناك نوعاً آخر من الاختلاف يدلّ عليه قوله: ﴿..وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ..﴾ الإسراء:٦٤، وهو الاختلاف من جهة الشدّة والضعف وسرعة العمل وبطئه، فإنّ الفارق بين الخيل والرجِل هو السرعة في اللحوق والإدراك وعدمها.

وهناك نوع آخر من الاختلاف في العمل، وهو الاجتماع عليه والانفراد، كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ المؤمنون:٩٧-٩٨، ولعلّ قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ الشعراء:٢٢١-٢٢٣، من هذا الباب.

تصرّفُ الشيطان في إدراك الإنسان تصرّفٌ طوليّ، لا يُنافي في قيامه بالإنسان وانتسابَه إليه انتسابَ الفعل إلى فاعله

استقلالُ الإنسان بنفسه وغفلته عن ربّه، وجميع ما يتفرّع عن ذلك من سيِّءِ الاعتقاد ورديءِ الأوهام والأفكار.. إنّما هي من تصرّف الشيطان